

إضاءات نقدية (فصلية محكمة)

السنة السادسة - العدد الحادي والعشرون - ربيع ١٣٩٥ ش / آذار ٢٠١٦ م

ص ٤٢ - ٩

نقد آراء النقاد المعاصرين في أبي نواس وحمرياته

سيد محمد حسيني*

يوسف هادي پور نهزمي (الكاتب المسؤول)**

الملخص

لأبي نواس شخصية فذة أثارت جدلاً حاداً بين النقاد من القدامى والمعاصرين والتي ما تزال تُثير حوله الكثير من الجدل؛ فلا يمكن التعرف على حقيقة شخصيته وشخصيته الحقيقية إلا بعد إعادة القراءة في أغلب ما قيل حوله؛ وللوصل إلى هذا الغرض نحن بحاجة إلى نوع خاص من الحزم والحذر في قبول ما قيل عنه وما نُسب إليه، وكذلك بحاجة إلى تقويم جديد لنهج حياته وطريقة تفكيره التي لا تُفهم من خلال ظاهر أشعاره، في كثير من الأحيان، ولا سيما أشعاره الحمريّة. المقال الذي بين أيديكم قد تناول آراء النقاد القدامى بصورة عابرة وقام بمعالجة آراء النقاد المعاصرين بشيء من التفصيل لتبيين مقدار إفراطهم عليه بسبب التحاليل النفسية التي لا أثر لها في تحاليل النقاد القدامى ولا أساس لها من أصل. ولإنجاز هذه المهمة تمّ الاستناد إلى بعض الأخبار والأشعار التي سببت أن تتزايد أخبار السوء حوله وحول أمه وإلى بعض الأبيات والقصائد التي تشير إلى الأجواء السائدة على تلك الفترة والأبيات التي تدل على بعض معتقداته من وجهة النظر السياسية والدينية.

الكلمات الدليلية: أبونواس، الشعر الحمري، النقاد القدامى، النقاد المعاصرون.

*. أستاذ اللغة العربية وآدابها بجامعة آزاد الإسلامية في كرج، كرج، إيران

** أستاذ مساعد في اللغة العربية وآدابها بجامعة آزاد الإسلامية في كرج، كرج، إيران

Hadi1339@yahoo.com

تاريخ القبول: ١٣٩٥/٢/٢٥ ش

تاريخ الوصول: ١٣٩٤/٦/٢٧ ش

المقدمة

لدراسة جديدة حول حياة أبي نواس وشعره الخمرى وللتعرف على حقيقة أمره إننا بحاجة إلى نوع خاص من الألفة بحياة تلك الشخصية المتميزة ومعرفة نمط تفكيرها وسلوكها واكتشاف العلاقات الشخصية والروحية التي ترتبط بينها وبين البيئة التي نمت فيها؛ وفضلاً عن ذلك لا بدّ أن نتعرف على الحوادث السياسية التي جرت في تلك الفترة، وكذلك على سلوك الدولة العباسية ومواقع الخلفاء تجاه الناس وتعاملهم معها، ومواقع أبي نواس تجاه هؤلاء الخلفاء الذين كانوا يلبسون بردة النبي (ص) دليلاً على سلوكهم سبيله وتسميتهم بأمر المؤمنين حتى يتمكن لنا فهم أشعاره الخمرية، تلك الأبيات التي أصبحت خالدة مدى العصور الماضية ولا شك أنها تبقى خالدة فى العصور القادمة. ورفضاً للذين زعموا خمرياته مرآة لحياته الشخصية وافترضوها سيرته الذاتية المكتوبة بلسان الشعر بدلا من النثر لا بد من إعادة النظر فيما قيل عنها وعن مدلولاتها. ونسأل النقاد المعاصرين: كيف يمكن أن تكون خمرياته سيرته الذاتية المكتوبة بلسان الشعر بدلا من النثر؟ وما معنى تلك التفاسير التي أخرجوها من ظاهر أشعاره الخمرية؟ وما معنى تلك المفاهيم والطقوس الدينية التي نسبوها إلى أبي نواس من مثل: عبادة الخمرة، وإقامة حفلة الزفاف لها ... والتي تثير إعجاب القارئ وتمس بعقله؟ وكلها بذريعة أنه من المجوس.

وأما الذى يرتبط بالكتاب القدامى فى حياة أبى نواس، فإنهم اهتموا بجمع أخباره التى تدلّ على ذكائه وكثرة علمه وأدبه وثقته من جانب، وعلى مجونه وتهتكه من جانب آخر دون أن يقوموا بتحليل نفسى لشخصيته. وقد ورد أخبار أبى نواس فى كتب كثيرة منها: كتاب البيان والتبيين للجاحظ، والكامل فى اللغة والأدب للمبرد، والشعر والشعراء لابن قتيبة، وطبقات الشعراء المحدثين لابن المعتز، والأغاني لأبى الفرج الإصهاني، والفهرست لابن النديم، ورسالة الغفران لأبى العلاء المعرى، وتاريخ بغداد لأبى بكر الخطيب البغدادي، والتاريخ الكبير المعروف بتهديب تاريخ دمشق لابن عساكر الشافعى، ووفيات الأعيان لابن خلّكان، وفى كتب كثيرة أخرى. وأما أوّل من عنى بجمع أخباره حتى زمانه فهو ابن منظور فى كتابه المسمّى بـ"أخبار أبى نواس" بعد

أن رأى قد فقد ترجمة أبي نواس من كتاب "الأغاني" لأبي فرج الأصبهاني. وقد جمع ابن منظور في كتابه كلما قيل عن حياة أبي نواس وعن شخصيته وأشعاره ذاكراً بعض الحوادث التي تتجلى في بعض أشعاره وقصائده.

وأما النقاد المعاصرون الذين كتبوا عن أبي نواس، فلم يكونوا يحافظون على هذه الجوانب من حياته أصلاً، بل إنهم اكتفوا بالروايات المتناقضة والقصص المختلفة حوله وحول أمه؛ وركزوا عليهما أي تركيز. ومن هنا وصلوا إلى نتائج شاذة لم يصلوا إليها النقاد القدامى قط. ولإمالة اللثام عن الحقايق الموجودة التي تحتوى على حياة أبي نواس الشخصية والقضايا التي تشير إليها خرمياته، في كثير من الأحيان، بصورة رمزية لا بد لنا أن نعالج كلما قيل عنه من القديم إلى عصرنا الحاضر ولو كانت عابرة.

آراء النقاد القدامى

إن المتتبع لأخبار أبي نواس وأحواله يواجه أخباراً متضاربة وآراء متباينة في تناول شخصيته ومعالجة أشعاره الخمرية بحيث لا يتاح له التعرف الصحيح على حقيقة أمره وحقيقة خرمياته. فقد أجمع غالبية الذين كتبوا عن سيرته وشخصيته على أنه: «كان عالماً فقيهاً، عارفاً بالأحكام والفتيا، بصيراً بالاختلاف، صاحب حفظ ونظر ومعرفة بطرق الحديث، يعرف ناسخ القرآن ومنسوخه، ومجكمه ومتشابهه ... وكان أحفظ لأشعار القدماء والمخضرمين وأوائل الإسلاميين والمحدثين.» (ابن المعتز، ١٩٩٨م: ٢٣٤) كما كان متكلماً جلدلاً فهماً، فكاد يكون إماماً من أئمة وكان متبحراً في علم النجوم والطبيعات، وكما كان راوية فحلاً بحيث روى عنه الكثيرون من الفقهاء وأصحاب الحديث، فضلاً عن كونه شاعراً مجيداً، ومن جانب آخر يؤكدون على أنه كان عابثاً، ماجناً، فاسقاً، خليعاً كل الخلاعة. (حسين، ١٩٨٦م: ج ٢: ٤٥ و٤٦) فلو سلمنا بما روى عنه من إمام بهذه العلوم، وسعة الاطلاع، والثقة والإطمئنان، فليس من المعقول أن تقبل القصص المختلفة حول مجونه السافر ومجاهرته بالفجور بتلك الصورة الصارخة التي تحدت عنها البعض من أصحاب التواريخ. ولكي يتاح للباحثين التعرف الصحيح على حقيقة أمره وحقيقة معاني أشعاره الخمرية، فلا بد من إمامة ولو عابرة على حياة الشاعر

الشخصية، والتي قضاها في ظل ظروف سياسية بالغة التعقيد وفي ظل حكومة جائرة أخذت من الإسلام غطاءً لتبرير أعمالها.

وأما المتتبع في تلك الروايات المنقولة التي تدلّ على مجون أبي نواس الشاذّ وتهتكه السافرة فيرى عدم صحتها بوضوح واضح، لأنّه يرى، في الكثير من تلك الحوادث، أبانواسَ عالماً بالغيب والأخبار التي تجرى بين الخليفة ونساءه ونديماتِه في الخلوات، فلا يخلو من الفائدة أن تقوم بذكر بعض القصص المختلفة، كنموذج، لإيضاح كذبها: «قيل إنّ أمير المؤمنين، هارون الرشيد أرق ذات ليلة، فقام يتمشّى في قصره بين المقاصير، فرأى جارية من جواربه نائمة فأعجبته فداس على رجلها، فانتبهت، فرأته، فاستحيّت منه وقالت: يا أمين الله ما هذا الخبر؟ فأجابها يقول:

قلتُ ضيفٌ طارقٌ في أرضكم هل تُضيفوه إلى وقتِ السحرِ
فأجابت: بسرورٍ سيدي أخدمُ الضيفَ بسمعي والبصرِ

فبات عندها إلى الصباح. فلما كان الصباحُ سأل: من الباب من الشعراء؟ قيل له: أبونواس. فأمر به فدخل عليه. فقال: هات ما عندك على وزن "يا أمين الله ما هذا الخبر" فأنشد يقول:

طال ليلي وتولاني السهر
فتفكرت فأحسنْتُ الفكر

فإذا وجهٌ جميلٌ مشرقٌ
زانه الرحمن يُزرى بالقمر

فلمستُ الرجلَ منها مُوطئاً
فدنتُ مني ومدتُ بالبصرِ

وأشارت لي بقول مُفصح
يا أمين الله ما هذا الخبر

قلتُ ضيفٌ طارقٌ في أرضكم
هل تُضيفوه إلى وقتِ السحرِ

فأجابت: بسرورٍ سيدي
أخدمُ الضيفَ بسمعي والبصرِ

فتعجب أمير المؤمنين وأمر له بصلة.» (العقاد، لاتا: ٥) وقيل: «إن الرشيد دخل يوماً وقت الظهر إلى مقصورة جارية تسمى "الخيزران" على غفلةٍ منها ووجدها تغتسل: فلما رآته تحللت بشعرها حتى لم ير من جسدها شيئاً، فأعجبه منها ذلك الفعل واستحسنه. ثم عاد إلى مجلسه وقال: من الباب من الشعراء؟ قيل: بشار وأبونواس. فأمر بهما، فحضرنا وقال: ليقُل كلُّ منكما أبياتا توافق ما في نفسي. فأنشأ بشار يقول:

تحيبتكم والقلب صار إليكم بنفسى ذاك المنزل المتحجب
إلى أن يقول:

وقالوا: تحبنا ولا قرب بيننا وكيف وأنتم حاجق أتجب
على أنهم أحلى من الشهد عندنا وأعذب من ماء الحياة وأطيب
فقال الخليفة: أحسنت، ولكن ما أصبت ما في نفسي. فقل أنت يا أبا نواس. فجعل يقول:

نضت عنها القميص لصب ماءٍ فورّد خدّها فرط الحياء...
...فسبحان الإله وقد براها كأحسن ما تكون في النساء

فقال الرشيد: سيفاً ونطعاً يا غلام! قال أبونواس: ولم يا أمير المؤمنين؟ قال: أمعنا كنت؟ قال: لا والله، ولكن شيء خطر

ببالي. فأمر له بأربعة آلاف درهم.» (المصدر نفسه: ٧)

ولا حاجة إلى ردّ هذا المدعى إلا أن أذكر بأن أبانواس ما كان شاعر البلاط إلا في خلافة الأمين والثاني أن بشاراً قُتل في زمان المهدي وما أدرك عصر هارون الرشيد أبداً. وأمثال هذه الروايات كثيرة، وأكثرها كما يرى القارئ مُقامة مؤلفة لا صحة لها، ولكنها تدلُّ على تمكّن الشاعر في سياق الخبر التاريخي أو سياق الاختراع والتأليف.

نقتصر القول على آراء القدامى حول أبي نواس، معتقدين بأنها لا تدلُّ على شيء مهم عن حياته وأشعاره. ولكن المهم عند البحث عن أحواله هو أن أخبار السوء في كتب الأولين أقل من أخبار السوء في كتب المعاصرين، والأخبار الدالة على كثرة علمه وأدبه وثقته وإيمانه أكثر وأكثر من أخبار السوء. ومهما تنتقل إلى الكتب الحديثة نواجه أخباراً غير كريمة تتزايد حوله. فللباحث أن يراجع الكتب القديمة القريبة من حياته

لُيْصَانُ عَنِ الْخَطَأِ.

وَأَمَّا بِالنِّسْبَةِ لِأَشْعَارِهِ فَأَوَّلُ مَنْ يَفْسِّرُ بَعْضَهَا هُوَ ابْنُ جَنِّي. إِنَّهُ يُفَسِّرُ أَرْجُوزَةَ أَبِي نَوَاسٍ فِي تَفْرِيطِ الْفَضْلِ بْنِ الرَّبِيعِ - وَزَيْرِ الرَّشِيدِ وَالْأَمِينِ - وَيَقُومُ بِشَرْحِ الْقَصِيدَةِ شَرْحاً وَافِياً، مَعْتَقِداً أَنَّ «أَبَانَوَاسَ فِي هَذَا النُّوعِ مِنْ شِعْرِهِ الَّذِي تَوَفَّرَ فِيهِ عَلَى الْجِدِّ الصِّرْفِ، كَانَ يَتَعَمَّدُ هَذَا الْمَنْحَى الْأَعْرَابِيَّ الْخَالِصَ تَعَمُّداً لِيَلْفِتَ عِلْمَاءَ اللُّغَةِ إِلَيْهِ فَيَحْفَلُوا بِهِ، أَوْ لِيُظْهِرَ لِمَجَاهِيرِ الْأَدْبَاءِ اقْتِدَارَهُ الْبَالِغَ عَلَى مِجَارَاةِ شِعْرَاءِ الْعَرَبِ الْأَوَّلِينَ وَأَنَّهُ لَا يَنْزِلُ عَنْ طَبَقَتِهِمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ فَوْقَهُمْ طَبَقَةً، إِلَى جَانِبِ تَجْدِيدِهِ فِي اللُّغَةِ وَالْأَسْلُوبِ وَالْأَغْرَاضِ وَالْمَعَانِي.» (الأثرى، ١٩٦٦م: ٥-٤)

آرَاءُ النُّقَادِ الْمَعَاصِرِينَ

نَكْتَفِي بِهَذَا الْمَقْدَارِ مِنْ أَخْبَارِ الْقَدَمَاءِ حَوْلَ أَبِي نَوَاسٍ، وَكَمَا رَأَيْنَا كَثِيراً مِنْهَا تَدُلُّ عَلَى عِلْمِهِ وَأَدْبِهِ وَذِكَاثِهِ، وَبَعْضُ مِنْهَا يَشْبَهُ بِالْقِصَصِ الْمُخْتَلِقَةِ الَّتِي لَا أَمْهِيَّةَ لَهَا. وَأَمَّا، مِنَ الْمُؤَسِّفِ، أَنَّ الْمَعَاصِرِينَ الَّذِينَ كَتَبُوا عَنْ أَبِي نَوَاسٍ فَلَمْ يَكُونُوا يَحْفَظُونَ عَلَى تِلْكَ الْجَوَانِبِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْأَدْبِيَّةِ مِنْ حَيَاتِهِ أَصْلاً، بَلْ إِنَّهُمْ اِكْتَفَوْا بِتِلْكَ الرِّوَايَاتِ الْمُتَنَاقِضَةِ وَالْقِصَصِ الْمُخْتَلِقَةِ حَوْلَهُ وَحَوْلَ أُمَّه، فَمَا أَعْطَوْهُ حَقَّهُ عِنْدَ كِتَابَةِ سِيرَتِهِ وَتَفْسِيرِ أَشْعَارِهِ وَلَا سِيَمَا خَمْرِيَاتِهِ الَّتِي تَعْتَبِرُ مَرآةً تَتَجَلَّى فِيهَا حَيَاةُ الْمَجْتَمَعِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَلَا حَيَاتِهِ الشَّخْصِيَّةَ ضَرُورَةً، بَلْ لِسُوءِ فَهْمِهِمْ عَنْهُ وَعَنْهَا وَصَلُوا إِلَى نَتَائِجٍ شَادَّةٍ وَالتِّي لَمْ يَصِلْ إِلَيْهَا النُّقَادُ الْقَدَامِيُّ قَطُّ. إِذْ إِنْ النُّقَادِ الْمَعَاصِرِينَ عَالَجُوا نَفْسِيَّةَ أَبِي نَوَاسٍ وَحَلَّلُوا أَخْبَارَهُ وَأَشْعَارَهُ بِصُورَةٍ كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ شَاعِراً، فَضْلاً أَنْ يَكُونَ شَاعِراً عَبْقَرِيّاً، بَلْ إِنَّهُمْ اخْتَلَطُوا بِالْأَخْبَارِ الصَّحِيحَةِ بِالْآرَاءِ الْمُخْتَلِقَةِ وَصَنَعُوا شَاعِراً مَاجِناً بِاسْمِ أَبِي نَوَاسٍ. هَذَا هُوَ أَحْمَدُ عَبْدِ الْمَجِيدِ الْغَزَالِي إِذْ يَقُولُ فِي مَقْدِّمَةِ دِيْوَانِ أَبِي نَوَاسٍ: «فَقَدْ نَشَأَ الْحَسَنُ يَتِيمًا فِي كِنْفِ أُمَّ شَغَلَتْهَا عَنْهُ مَطَالِبُ الْعَيْشِ، وَالسَّعْيُ الدَّوُّوبُ مِنْ أَجْلِهِ وَمِنْ أَجْلِ إِخْوَتِهِ، وَاضْطَرَّتْهَا الْحَاجَةُ إِلَى أَنْ تَجْعَلَ مِنْ بَيْتِهَا مُلْتَقَى لِرُؤَادِ الْمُتَعَةِ وَطُلَّابِ اللَّذَّةِ، يَجْتَمِعُونَ فِي مَنْزِلِهَا فَيَشْرَبُونَ وَيَقْضُونَ، وَيَقْضُونَ مَأْرِبَهُمْ تَحْتَ سَمْعِهَا وَبَصَرِهَا، رَبَّماً تَحْتَ الْوَلِيدِ النَّاشِئِ وَبَصَرِهِ كَذَلِكَ. ثُمَّ انْتَهَتْ بِهَا الْحَالُ إِلَى عِلَاقَةِ بَرَجَلٍ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ، تَنَاقَلُ النَّاسُ

حديثها قروّجت منه قطعاً للألسنة وقضاءً على ما يثار حوله وحوّلها من كلام غير كريم. وبهذا الزواج انقطعت تلك الصلة الضئيلة التي كانت تربط الأمّ بابنها ... انقطعت لأنّها شاءت لها أن تنقطع، فقد انصرفت إلى زوجها واستغرقتها حياتها الطارئة ولم تلتفت بعد ذلك إلا إلى نفسها. ولم تصغ لنداء غير نداء عاطفتها الجديدة.» (الغزالي، ١٩٥٣م: ط) والحال أنّ القارئ يشعر بأنّ الناقد قد ألزم نفسه أن يصل إلى نتائج معينة مفروضة من قبل بحيث يتعجّب الباحث ويتساءل نفسه: من أين أتى الكاتب بهذه المعلومات؟ ويزداد إعجابه حينما يدرك أنّ هذه المعلومات والنتائج كلّها مأخوذة من عدة أبيات قالها "أبان اللاحق" الشاعر الذي عداوته لأبي نواس مشهورة حيث يقول:

«أبونواس بن هانيء

وأّمه جُلبان

والناس أفطن شيء

إلى حروف المعاني

إن زدتُ بيتاً على ذى

ما عشتُ فاقطع لساني»

(ابن المعتز، ١٩٩٨م: ٢٧٣)

أو يقول:

«هاني الجون أبوه

زاده لله هوانا

سائل العباس واسمع

عنه من أمك شأنا»

(صدقي، لاتا: ٢٢)

ولا يخفى على القارئ، الحقد المخبوء في هذه الأبيات. فقد بنى الغزالي حديثه على هذه الأبيات وما شابهها من الأخبار دون ثقة لها. وفي الحقيقة عرّج عن طريق الصواب للحصول على نتائج مفروضة على نفسه. فلهذا يتابع القول ويقول: «إنّ طفلاً في مثل سنّ أبي نواس، تسلمه ظروفه وحيداً إلى التجربة، وتركه أعزل للحوادث، لا يجد في نفسه

القدرة الكافية لأن يجتنب الحوادث، ويعلو على التجربة، ويقاوم إغراء الحياة بما تقدمه من مشهيات مثيرة وأن يفطن إلى النتائج المجهولة، وهو يخطو على عتبة الدنيا ... ومما يزيد في خطورة الأمر في هذه السن أن وسيلة الحياة إلى الإغراء هي ما ركب في نفس الطفل من ميل إلى اللعب ومن غريزة جنسية، ومن حب للاستطلاع. فلا يمكن والحالة هذه مقاومتها، والتغلب عليها ... بل إنه ليبحث عنها إن لم يجدها وإنه يسعى إليها إذا لم تسع إليه.» (الغزالي، ١٩٥٣: ١٠٠-١٠١)

يتحدث الغزالي عن أبي نواس مثلما يتحدث عن طفل يعيش في عصرنا الحاضر فاقداً أباه وأمه، وهو بلا هادٍ يهديه ولا حافظٍ يحافظ عليه وهو في معرض المفسد الشائعة في هذا العصر وإنه لا يجد في نفسه قدرة ليتجنب الحوادث وعنده نقود كثيرة وسبل الاقتحام في المآثم يسيرة. ولكننا نعلم أنه كان ذا ذكوة ونبوغ من أوان طفولته وكان مولعاً بالتعلم، بحيث قرأ القرآن وحفظه وحذق في القراءة وأصبح أقرأ أهل البصرة، ولما شبَّ رغب في العلم والأدب. (ابن منظور، ١٩٦٦م، ج ٣: ١٠) بل إنه كان يشعر بالمسؤولية وأثبتها بقيامه بالعمل عند عطار في النهار وبالْحضور في حلقات الدرس عند المساء. (ابن منظور، ١٩٩٥م: ١٥) فليس صحيحاً قول البعض حيث يقول: «ولعلَّ الفتى ارتاح في دخيلة نفسه إلى ما صار إليه من مطلق الحرية.» (صدقي، لاتا: ٢٣) بل إنه كان يشعر بأشد نوع من المسؤولية عند العمل والدرس، فنجح في هذين المجالين. والغزالي يعترف بهذا لاهتمام والجدُّ إذ يقول: «وكان الحسن من الذكاء، والنهم الشديد للعلم بحيث لا تفوته ليلة لم يركب ظلامها إلى المسجد، ولا حلقة لم يجلس إليها، ولا عالم أو راوية، أو محدث، أو فقيه إلا استمع إليه، ونقل عنه.» (الغزالي، ١٩٥٣م: ١٠٠) ولكنه مع الاعتراف بهذه الرغبة في العلم والأدب، يقوم بسرد قصة خيالية من عنده ويقول: «وجد الحسن نفسه حراً طليقاً، لا تربطه بالبيت تلك الصلة العميقة التي يحسُّ بها كلُّ طفل فكان لا يأوى إلى البيت إلا إماماً، ولا يأتي إليه إلا لينام، فيستريح من تعب النهار في دكان العطار، ومذاكرة الليل في المسجد الجامع، وكان الفتى الصغير أحسنَّ بأنه مخلوق لغير العمل الذي أرادته له أمه ليجعل منه وسيلة للعيش، وسبباً للكسب.» (المصدر نفسه: ١٠٠) ولا يخفى على الباحث، عند التوغُّل في الموضوع، بأن كلَّها تحليل نفساني لا

يمسّ بشخصيّة أبي نواس. ولكنّ الناقد فرض على نفسه أن يصل إلى نتائج مقدّرة التي أدركها من خلال ظاهر خرياته. وفي الحقيقة كتب الغزالي سيرة أبي نواس استدلّالاً بما يفهم من شعره، وهو المجون والفسق والفجور، فلا بدّ للنّاقد أن يجد طريقاً يدلّ على استعداده من أوان الطفولة للانحراف الشديد ويدلّ على يأسه من تلك العيشة وبجثته عن اللذة. ولهذا، لاتمام القصة يربطه بجماعة سوء تسوقه إلى المآثم، فيتابع القول ويقول: «وضّلّ على هذا النحو ردهاً من الزمن، كان خلاله يختلط بالأحداث، والمراهقين من ناشئة الأدب والمتعلّمين، وقد أعجبهم ظرفه، وأسره جماله، وراعهم ما عليه من ذكاء وسرعة خاطر، وحبّيه إليهم ما كان فيه من ميل إلى الدّعابة، واقتدار على الفكاهة، وفطنة إلى بواعث الضحك، وجنوح إلى معابطة للشبّوخ والمتزمتين وذوى الوقار. وقد أخذ التّواسى في هذه الفترة يلتمس أسباب العطف، وقد فقده في البيت، ويرتاد مواقع الصداقة بروح جائعة وقلب ظامئاً وبدأ يتعاطى الخمر مع أتراه.» (المصدر نفسه: ص - ك) ثم يشير الغزالي إلى التقائه بوالبة بن الحباب الأسدّي، الشاعر الماجن، وبعد ذلك يتحدث عن إخفاقه في حبّ حبيبته "جنان" ويأسه من الظفر بها حتّى يصل إلى نتيجة مقدّرة فيقول: «وعلى الرغم من أنّ أبانواس قد انساق في المجون بدوافع كثيرة فإنّ الدافع اللاشعوري الذي أنشأه في نفسه، إخفاقه في الحبّ وفي الحصول على "جنان" كان أقواها جميعاً وأشدّها توشّجاً بنفسه. فلم يكن هذا الصخب المستمرّ إلاّ محاولة لإسكات هذا الصراخ العاطفي الحبيس في أعماقه، ولمّ يدمن الخمر هذا الإدمان إلاّ لأنّه كان يريد أن ينسى وأن يقتل همومه التي تعتلج في صدره.» (المصدر نفسه: ع - س) ولإثبات رأيه هذا يستدلّ بظاهر بعض خرياته التي تشير إلى لجوئه بالخمر. والواضح أنّه لتلك الأبيات في كثير من الأحيان معانٍ أخرى غير المعاني التي يفهمها الغزالي. وإنّ نجعل هذا الأسلوب طريقة في تفسير أشعار الشعراء لا تُصان قطعة شعر من التحريف وسوء الفهم. يعتقد الغزالي أن لهذا الحب - حبّ جنان - دور هام في حياة أبي نواس وفي توجيه شعره، حيث يقول: «إذن فقد أجهزت هذه التجربة على كلّ صلة تربط أبانواس بالمرأة، فلم يعد يحسّ بهذا العطف الغريزي الذي يكون بين الرّجل والمرأة، ولما كان هذا العطف ضرورياً للإنسان، ضرورة الماء، والهواء، والطعام، فقد تلمسه أبونواس ولكن

في جنسه.» (المصدر نفسه:ع) ويعتقد الكاتب بأن إخفاق أبي نواس في حب "جنان" يساوي إخفاقه في حبّ المرأة وسبب ذلك يعود إلى تفضيله الذكر على الأنثى. وقد أوجد هذه العقدة النفسية التي تصرّفت مشاعره وتحدّدت علاقاته بالناس وقد جعلت له في المرأة والحياة فلسفة خاصّة فيستننتج: «ومن هنا يتّضح لقارئ غزله سبب تفضيله الغلمان على النساء، ويتّضح له أيضاً لماذا كان شعره فيهم أكثر من شعره فيهنّ ولماذا كان يخشى المرأة ويتجنّبها ويذمّها ما استطاع إلى الدّم سبيلاً.» (المصدر نفسه: ف-ع) يقوله الغزالي في حالة يرى الكثير من الباحثين أنّ غزله في المؤنث ولا سيّما في "جنان" من أحرّ غزلياته كما يعتقد عباس محمود العقّاد، حيث يقول: «إنما جزم بعض النقاد برجحان غزله في المذكّر على غزله المؤنث، لأنّهم ساقوا أنفسهم اضطراراً إلى هذا الترجيح وفرضوا فرضهم الأوّل بغير فهم لحقيقته. ثمّ ألزموا أنفسهم نتائجهم عن اعتساف لا دليل عليه.» (العقّاد، لاتا: ١٦٩) ثمّ ينتقل الغزالي إلى خمريات أبي نواس، تلك التي جعلته فريداً بين شعراء عصره والعصور التي جاءت بعده، ويقول: «أنها أقوى ما كتبه شاعر في الخمر.» (الغزالي، ١٩٥٣م: ف) ولكنّه يعتقد: أنّ «الخمر التي يشربها أبو نواس، خمر حسّي ما في ذلك ريب.» (المصدر نفسه: ص) إنه لا يقف عند هذا الحدّ لأنّ الاكتفاء بهذا القول لا يفسّر أكثر خمريات أبي نواس، فيجتاز الحدود المعروفة ويقول: «ولكنّه من فرط شغفه بها وتقديسه لها قد انتقل بها من "الحسيّة" إلى "المعنوية" فجعلها "فكرة" شائعة تحسّ بها الروح.» (المصدر نفسه: ص)

ومن وراء كلّ ذلك يصل إلى النتيجة المقدّرة المفروضة التي قد وصل إليها من قبل، وهي حصيلة فهمه عن خمريات أبي نواس، فيقول: «وإذا كان أبو نواس قد وصل في حبّه للخمر إلى هذا الحدّ لا نسّميه عشقاً فحسب، بل نسّميه عبادة وتقديساً، فالذي نعتقده أنّ وراء هذا الشعر روحاً قلقة معدّبة تبحث عن سعادتها في فرح الحياة، وتبتعد جهد طاقتها عن الألم، وتستقبل الدنيا بالضحك والسّرور، بعد أن استقبلتها بالتجهم والعبوس. وإنّ هذا الاستغراق في البحث عن الفرح وأسبابه، ليجعلنا نلمس مقدار ما كان يحسّ به من شقاء باطن ويأس عميق، وحزن دفين.» (المصدر نفسه: ص)

هذا هو أبو نواس وخمرياته من منظر أحمد عبدالمجيد الغزالي. إنّه عالِم حياة أبي

نواس متمسكاً بظاهر أشعاره؛ فيرى في شخصيته كثيراً من العقد النفسية بسبب إخفاقه في حبّ "جنان" وبالنتيجة في حبّ المرأة، فالخمر وسيلة لتبديد الأحزان. قام الغزالي بتحليل شخصية أبي نواس وشعره تحليلاً نفسياً، ولكنّه، على حسب رأينا، أخفق في تحليله هذا كلّ الإخفاق لتورطه في المغالطة الزمنية والتحليلية النفسية.

ولقد كتب الكثيرون، دون الغزالي، عن التجربة الخمرية عند أبي نواس وعالجوها وطرحوا آراء شتى لإيضاح شخصيته وتفسير نفسيته من خلال الخمرة. منهم: الدكتور محمد النويهى. إنّه يرى أنّ الخمرة عند أبي نواس كانت تعويضاً عن حرمانه من عاطفة الأمومة إذ يقول: «ما نظنُّ أبانواس في ظروفه الخاصّة قد استطاع أن يحلّ هذه العقدة، بل نعتقد أنّه بقي طوال حياته يحترق بهذه النار الآكلة، والسبب أنّ أمّه خاتنته وهجرته، وهى ذكرى كلّما استثّيرت في عقله الباطن هاجت غيرته وأسعرت نارها. وهنا قدّمت له الخمرة، هذا الإرضاء الذى نعنيه، فهى أنثى ولكنّها أمّ أيضاً، وهو يستطيع أن يواقعها، فيرضى بذلك نزوعه الفاسق.» (النويهى، ١٩٥٣م: ٤٤) والمشهود من كلام النويهى أنّه قد اعتمد على الأخبار المحافلة بالغموض والتناقض حول أمّه. وإن تكن هذه الأخبار صحيحة لا تدلّ أيضاً على إثارة العقد النفسية بتلك الصورة الصاخبة في شخصية أبي نواس، وكما شاهدنا أنّها لم تؤثر في تعلّمه وبراعته في العلم والأدب. ولكن النويهى لم يقف عند هذا الحدّ ويحلّل شخصيته وأبعاد تعلقه بالخمر كاشفاً شيئاً جديداً إذ يقول: «حين نرداد تأملاً في عاطفة أبي نواس نحو الخمرة نستكشف ظاهرة غريبة لم أجد أحداً من نقادنا المحدثين من اهتمّ بدراستها وأدرك مغزاها، وهى شعوره الجنسي نحو الخمر. والذى صرفهم عن أن يدركوا أهميّة ما يقوله في هذا الموضوع أنّهم أخذوا كلامه على أنّه مجاز من القول. مجرد تشبيهات أو استعارات ووسيلة صناعية من وسائل الطُرف ... ولكنّهم جميعاً لم ينتبهوا إلى أنّ أبانواس إنّما يصف حقيقة واقعة نجدها في تكوينه الجنسي العجيب. فأبونواس قد أحسّ نحو الخمر بإحساس جنسى. نعنى أنّ الخمرة هاجت فيه شهوة الواقعة، لا واقعة النساء أو الغلمان، بل واقعة الخمرة وأنّ شربها إرضاءً جنسياً.» (المصدر نفسه: ٤٤) والواضح كيف أنّ النويهى قد اعتمد في نظره إلى شخصية أبي نواس على علم النفس التحليلي مستندا على نقطة هامّة فيه وهى الإرضاءات

الثانوية وعلاقتها بما يسميه علماء النفس "الاستبدال الجنسي". ولكننا نعلم أن هذا الاستبدال الجنسي يحدث لمن لا يوجد عنده الاستطاعة الجنسية وهو محروم عن واقعة النساء. والحال ما كان أبونواس يتجنّب النساء، بل كان له حياة أسرية طيبة، وإن أنكر البعض أن يكون له هذه الحياة، ولكنه يشير إلى قضايا الأسرية في قصيدته المعروفة عند رحلته إلى مصر حيث يتحدث عن رد فعل زوجته والأجواء السائدة عند الرحلة بعاطفة صادقة إذ يقول:

«تَقُولُ التّي عَن بَيْتِهَا خَفَّ مَرَكِبِي عَزِيزٌ عَلَيْنَا أَنْ نَرَاكَ تَسِيرُ
أَمَّا دُونَ مِصْرٍ لِلْغِنَى مُتَطَلِّبٌ بَلَى إِنَّ أَسْبَابَ الْغِنَى لَكَثِيرُ
فَقُلْتُ لَهَا وَاسْتَعْجَلْتَهَا بِوَادِرُ جَرَّتْ فَجَرَى فِي جَرِيهِنَّ عَبِيرُ
ذَرِينِي أَكْثَرَ حَاسِدِيكِ بِرِحْلَةٍ إِلَى بَلَدٍ فِيهِ الْخَصِيبُ أَمِيرُ»

(الديوان: ٤٨١)

وقد مدح الخصب خلال هذه القصيدة وقصائد أخرى، فأنعم الخصب عليه وأغدق، فلبث هناك حوالي سنة حتى نهاية حكم الخصب، وكانت آم الهجرة والبعد عن الأسرة تعصر قلبه، فقرّر مغادرة مصر والرجوع إلى بغداد. كما يقول في ذلك:

«ذَكَرَ الْكَرْخَ نَازِحُ الْأَوْطَانِ فَصَبَا صَبْوَةً وَوَلَاتَ أَوَانِ
لَيْسَ لِي مَسْعَدٌ بِمِصْرَ عَلَى الشَّو قِ إِلَى أَوْجِهِ هُنَاكَ حِسَانِ
نَازِلَاتٍ مِنَ السَّرَاةِ فَكَرَخَا يَا إِلَى الشُّطْذَى الْقُصُورِ الدَّوَانِي»

(الديوان: ٤٧٦)

إلى أن يبشر ابنته بالإسراف في كل شيء والإنفاق، على أنه عائد إليها بالمال الكثير حيث يقول:

«يَا ابْنَتِي أَبْشِرِي بِمِيزَةِ مِصْرٍ وَتَمَنِّي وَأَسْرِفِي فِي الْأَمَانِي»

(الديوان: ٤٧٧)

إذن فلا محلّ لمثل هذه العبارات التي وردت في كتاب النوهي: «فالحمرة متصلة أوثق الاتصال بتكوينه العصبي وبنائه النفساني، وهي مرتبطة أعمق ارتباط بعقده النفسية التي تكوّنت فيه منذ طفولته. وقد وجد في حلّ هذه العقد وتفريغ أزماته العاطفية التي نشأت

عنها، وجدَ فيها التعويض عن الحب الجنسي الطبيعي الذي يحقُّه الرجال العاديو التكوين مع النساء. ووجدَ فيها العزاء والسُّلوى الذي حرّمه من الحنان الأموى. «(التوبيه، ١٩٥٣م: ٩٦) وذلك حينما نحن لا نشكُّ في صحة أبي نواس النفسية والعقلية وحياته العائلية، ولم تصل إلينا حتى الآن من روايات تدلُّ على عدم صحته النفسية، بل، على العكس، كثرة علمه وأدبه وذكائه وغازاته وسيادته في الشعر يدلُّ على صحته الجسمية والنفسية. فضلاً عن ذلك تتساءل كيف يمكن أن تكون الخمرة بديلاً من الأم والزوجة؟ أنحن نتكلّم عن موجود غير بشرى أم نتحدث عن إنسان شاعر وشاعرٍ شهير؟

خلاصة القول إنَّ التوبيه يفترض فيه وضعا شاذّا يحيط بشخصية أبي نواس وإنّه يعتمد في تحليله على بعض الروايات المشبوهة ومنها التي طعنت بأمّه وكانت حسب رأيه سبباً مباشراً في خلق عقده النفسية التي أحاطت به. وليس لدينا أيُّ شكٍّ في أنّ حملة التشهير بأم أبي نواس هي حلقة من حلقات هذه الحملة ضده. والسبب أنّ أبانواس كان يعتقد بأفكار تميل إلى الحرّية وأنّه كان شاعر الناس ولا شاعر البلاط، إلا أنه صحب الأمين مدة قصيرة. فلهذا واجه أبونواس عدداً كثيراً من حملات التشهير والتشكيك من جوانب شتى تختلف غايات هذه الحملات ومراميها: (الزعيم، ١٩٨١م:

(١٧٥)

الاتجاه الأول: يتعلّق باتجاهه الفكرى والأدبى وبمذهبه الجديد في الشعر الذى تمثلت فيه ثورته على منهج القصيدة والنظام الشعرى القديم، فخالفه الشعراء الذين كانوا يحافظون على المنهج القديم وبتوا دعايات كثيرة ضده.

الاتجاه الثانى: يتعلّق بعدد من الشعراء المعاندين له، والذين لهم موقفهم الصريح المؤيد للحكم العباسى والمعارض لآل البيت. ومن هؤلاء الشعراء: مروان بن أبى حفصة، وسلم الخاسر، والرّقاشى وأبان عبد الحميد اللاحقى، شاعر البرامكة.

الاتجاه الثالث: مدعوم بالخلفاء والأمراء والوزراء، والذين كان لهم وضعهم الطبقي والاجتماعى الخاص إلى جانب ما يتمتّعون به من نفوذ سياسى، وفي الحقيقة كانت لهم شخصيتان: الأولى هى الشخصية الرسمية عند الناس تحافظ على العفة والطهارة والرزانة، والثانية شخصية عابثة ماجنة تظهر في خلواتهم. هؤلاء إذا حضروا مجالس

الأنس والطرب مع الغلمان والجوارى والمغنين، جادت قريحتهم بشعر مُسَّف فاحشٍ نسبوه إلى أبي نواس خوفاً من قدرهم وموقعهم الاجتماعى والسياسى، كما ورد فى بعض المصادر: «العامّة الحمقى قد لهجت بأن تنسب كل شعرٍ فى المجون إلى أبي نواس، وكذلك تصنع فى أمر مجنون "بنى عامر" كل شىء فيه ذكر ليلى تنسبه إلى المجنون.» (ابن المعتز، ١٩٩٨م: ١١٤)

الاتجاه الرابع: وهو تهربّ أبى نواس من هذه المجالس الرسمية لاتّجاهه الفكرى والعقيدتى والدينى. وهذا هو أبونواس يقول: «إنما يصبر على مجالسة هؤلاء الفحول المنقطعون، الذين لا ينبعثون ولا ينطقون إلاّ بأمرهم. والله لكأننى على النار إذا دخلت عليهم حتى أنصرف إلى إخوانى ومن أشاربه، لأنى إذا كنت عندهم فلا أملك من أمرى شيئاً.» (المصدر نفسه: ٢٣٤) وتتضح لنا قضايا كثيرة عند النظر فى قول أبى نواس حيث يقول: «لا أكاد أقول شعراً جيداً حتى تكون نفسى طيبة.» (ابن منظور، ١٩٩٥م: ٤١) كان الخلفاء والأمراء يتمنون أن يكون أبونواس فى بلاطهم ويتقرب إليهم، ولكنه كان بمعزل عن البلاط وكان ميله إلى الناس وميل الناس إليه: «... فصار مثلاً فى الناس وأحبّه الخاصة والعامّة، وكان يهرب من الخلفاء والملوك بجهد.» (ابن المعتز، ١٩٩٨م: ٢٣٤) و«لم يكن شاعر فى عصر أبى نواس إلا وهو يحسده لميل الناس إليه وشهوتهم لمعاشرته ولبعد صيته وظرف لسانه.» (ابن منظور، ١٩٩٥م: ٤١) ولا يخفى على الباحث ميله إلى الشعوبية وذلك كله مما لا يؤهل شاعراً بأن يكون قريباً من الخلفاء والحكام. الاتجاه الخامس: هذا هو ما عاناه كثيراً وأصبح سبباً أن تكثر الأقوال فيه كما جاء فى أحواله: «كان دمثاً، لطيفاً، ظريفاً، حلو المعشر، حسن الوجه، رقيق اللون، أبيض، حلو الشمائل، ناعم الجسم.» (المصدر نفسه: ١٥) وكان «فصيح اللسان، لطيف المنطق، مليح الإشارة، وظرفه كان من أهم ما تتميز به شخصيته.» (ابن المعتز، ١٩٩٨م: ٢٢٨) ولعلّ اتجاهه هذا إلى الهزل والدعابة إلى جانب ما تتمتع به من جرأة وحرية فى قول ما كان يخطر بباله جعل الكثيرين ينسبون إليه النوادر والسلوك الماجن والشعر الفاسق. ولهذا نرى فى ديوانه كثيراً من الأبيات لا تحمل خصائص أبى نواس؛ ولكن ظرفه وهزله كان أشد من الجد، وكما نعلم المجد المخبوء تحت الهزل هو أشد من المجد

الظاهر. وهو الذى يقول عن نفسه: «وأما المجون، فما كلُّ أحد يحسن أن يجن، وإنما المجون ظرفٌ ولست أبعُدُ فيه عن حدِّ الأدب. ولا أتجاوز مقداره.» (ابن منظور، لاتا، ج ٣: ٢٠١) ويؤكد هذا القول قوله الآخر ممَّا نقله محمد بن أبي عمير: «سمعتُ أبا نواس يقول: والله ما فتحتُ سراويلي لحرام قط.» (ابن عساکر، ١٣٣٢ق: ٢٦٤)

هذا هو أبونواس كما يراه الدكتور محمد النويهي، ولكن الأستاذ عباس محمود العقاد قد عرف ضعف هذه التحليلات بسعة معلوماته وكثرة غوره في القضية قائلاً: «أيسر ما يقال في كلمة واحدة أنه إباحي. ولكن الإباحي قد يخفى رذائله وموبقاته وقد يدارى الناس ويتسم بينهم بسمة الصلاح والتقوى ولعل الأكثريين من الإباحيين في عصر أبي نواس خاصة كانوا على هذه السنة، لأنه كان، باتفاق واصفيه، عصرشكوك واختلاط ونفاق.» (العقاد، لاتا: ٢٩) إنه يطرح المسألة ثم يرفضها قائلاً بأن المسألة ليست بهذه السذاجة، ثم يتابع قوله ويقول: «وأيسر ما يقال بعد ذلك أنه إباحي متهتك. يظهر أمره ولا يتكلف لإخفائه... وهذا يكفي للصدق في وصفه على حقيقته ولكنه لا يُعنى شيئاً إذا كان المقام مقام دراسة نفسية.» (المصدر نفسه: ٣٠-٢٩) فلا بد له أن يبحث عن أسباب أخرى تفسر آفات أبي نواس كلها. الآفات التي أحاطت أبانواس - على رأى العقاد - بصورة شاذة. ولكن سعة معلوماته وكثرة ثقافته تقعه في خطأٍ أعظم من خطأ الغزالي والنويهي، فيقول: «وإنما تفسر آفات أبي نواس جميعاً ظاهرة نفسية أخرى هي "الترجسية" - وفيها تفسير لآفته الكبرى وتفسير لآفته الصغرى التي تتفرع على جوانبها، هذه الترجسية شذوذٌ دقيقٌ إلى ضروب شتى من الشذوذ في غرائز الجنس وبواعث الأخلاق. ويلتبس الأمر من أجل هذا بين الترجسية وتلك الضروب المختلفة من الشذوذات الجنسية.» (المصدر نفسه: ٣٤-٣٣) والعجيب أن الأستاذ عباس محمود العقاد قد اعتمد أيضاً في تحليله لشخصية أبي نواس على الروايات الضعيفة التي تدل على نسبه ونشأته، ولا سيما على الروايات الضعيفة التي تطعن بأخلاق أمه وتنسب إليها الانحراف الخُلقي. ونحن لا نعتقد بصحة هذا الأمر، لأن الخبر الوحيد الذى اعتمد العقاد عليه في إطلاق الأحكام ضد أم أبي نواس هو تلك الآيات المذكورة لأبان بن عبد الحميد اللاحقى، شاعر البرامكة، ونحن أشرنا إلى العداوة بينه وبين أبي نواس.

وليس الطعن بأخلاق امرأة قد فقدت زوجها أمراً عجيباً، كما هي الحال وقد يذيع الأعداء أخباراً غير كريمة حولها وحول أبنائها، إما بسبب العداوة لها، أو بسبب العداوة لأولادها. لنستمع إلى العقّاد كيف يفرض على نفسه أن يحكم فيما هو يسمّيه بعقدة النسب بسبب ما قيل عن أمّه ويقول: «إنّ هذه العقدة كانت من أقوى بواعث أبي نواس على معاقرة الخمر وألفة مجالسها واختيار المجالس التي لا تسمع فيها المفاخرة بالأنساب ... ولكنّها تُعابُ على ألسنة الظرفاء والأحباب.» (المصدر نفسه: ١٠٠) وفي الحال نحن نعلم بأن أصل النسب يعود إلى الأب دون الأم ولاسيما عند العرب. وكان أبونواس ميمناً عريق النسب يتعصب لقحطان على عدنان وقد أشار إليه وافتخر به عدة مرّات وله فيهم أشعار كثيرة يمدحهم ويهجو على أعدائهم وعلى عدنانيين، ومن قوله:

«لَيْسَتْ بدارٍ عَفَّتْ وَغَيَّرَهَا

ضربانٍ من قَطْرَها وَحاصِبِها

بل نحن أربابُ ناعِطٍ ولنا

صنعاٌ والمسكُ من محاربِها

حتى يقول:

فافخر بقحطانَ غير مكتئبٍ

فحاتمُ الجود من مناقِبِها»

(الديوان: ٥٠٨-٥٠٦)

يقال: أطال الرشيد حبسه بسبب هذه القصيدة. (المصدر نفسه: ٥٠٦)

وفي قصيدة أخرى يقول مفتخراً بقحطان:

«لَمِنَ الدِيَارِ تُسْرِبَلْتُ بِبِلاها

نَسِيَتَكَ رَبُّنْها وما تَساها

لِتَرورَ من قحطانَ قَرَمَ مُعاولٍ

لامعجِباً صَلفاً، ولا تَيّاهَا

خضعتُ لعثمان بن عثمان العُلى

حتى تَسَمَّ فوقها فَعَلاها

وكذاك عكُّ لا تزال سيوفها
تهلُّ من مهجِ الكُماةِ ظباها»

(الديوان: ٤٩٦)

”عكُّ“ قبيلة يمانية؛ وإنه يفتخر بقحطانيين في أبيات كثيرة أخرى لا يمكن ذكرها. فلا شك في انتماء أبي نواس لليمانية ولقحطان من جانب الأب كما يؤكد عليه أبو نواس نفسه.

وأما النرجسية التي يعتقد العقاد أنها تفسر آفات أبي نواس كلها، فتنقسم إلى قسمين على حسب رأيه: الأوّل هو ”الاشتهاء الذاتي“ والثاني ”التوثين الذاتي“. فالاشتهاء الذاتي يغلب على الحالات الجسدية، والمصاب به يشتهي بدنه كأنه بدن إنسان غريب، ولكنه فيه شهوة يبالح فيها المرض. والتوثين الذاتي يغلب على الحالات العاطفية والفكرية. فيتخذ المصاب به من نفسه وثنا يعزّه ويعبده. والعقاد يعتقد بأن هاتين الحالتين لا تتطبقان على أبي نواس بصورة واحدة ويقول: «فالشذوذ الذي يميل بصاحبه إلى عشق أبناء جنسه والعزوف عن الجنس الآخر، لا ينطبق على أبي نواس، لأنّه يُغازل الجوارى كما يغازل الغلمان، وكلامه كثير في استحسان الفتاة لأنّها كالغلام، واستحسان الغلام لأنّه كالفتاة.» (المصدر نفسه: ٤١) فلا بدّ له أن يصنع معجوناً من هاتين الصورتين للنرجسيّة ويقول: «وتلازم الاشتهاء الذاتي والتوثين الذاتي معا لوازِم متفاوتة في درجة الالتصاق بالآفة وتوابعها، فمن أبرزها وأقواها التلبّيس أو التشخيص ”Identification“ ومنها لازمة العرض ”Exhibitionism“ ولازمة الارتداد ”Centripital Regression“. (المصدر نفسه: ٣٩) إنّه يقوم بشرح ميزات هذه الحالات ويصل إلى نتيجة مفروضة ويقول: «فتنطبق عليه لازمة العرض كما تنطبق عليه لازمة التلبّيس والتشخيص ولعلّ لازمة العرض أظهر فيه.» (المصدر نفسه: ٤٦) ونحن نعلم أنّ لازمة العرض تشمل الإظهار بجميع درجاته، والمصاب به يكشف عورته ويعرض أعضائه ويتعرّى من ثيابه، أو يلبس الثياب التي تشبه العرى، ولا تستر ما وراءها. والحال لم يصل إلينا شيء من الأخبار يدلّ على هذه الحالات عند أبي نواس. والعقاد نفسه يقول: «ولكنّ الأكثر الأعمّ في لازمة العرض أنها، لا تمعن هذا الإمعان إلّا في

حالة الجنون وما يقاربه.» (المصدر نفسه: ٤٠) والمشهور أنّ أبانواس كان ذا صحة نفسية وعقلية ولم يسمع عنه غير هذا.

هذا هو بعض الآراء التي طرحها العقّاد حول شخصية أبي نواس وخمرياته. وإنّا في خلال تتبّعنا لما قاله العقّاد، نرى أنّه قد جعل من هذه الشخصية بؤرةً للعقد والآفات الجنسية، ونعتقد أنّه في تحليله هذا - رغم سعيه إلى الإمساك بشخصية أبي نواس والتغلغل في أعماقها - لم يستطع حتّى يلمس أطراف هذه الشخصية. والسبب هو أنّه فرض على نفسه أن لا يوجد في خمريات أبي نواس إلاّ الخمر الحسى والمجون وعرض الحالات الجنسية بسبب خيانة الأم وضعف النسب ونشوء العقد النفسية. وهذا الفرض هو السبب الرئيسى لوقوع الغزالي والنويهى والعقّاد في الخطاء وسوء فهمهم عن أبي نواس وخمرياته. وفي رأينا ظاهرة العرض الذي يتكلّم عنه العقّاد، يمكن أن يكون صحيحاً، ولكن لا بمعنى عرض الحالات الجنسية، بل بمعنى عرض الحالات الاجتماعية والسياسية التي تموج في جوفه وتبحث عن طريق للخروج وهى مقابلة ومناضلة لما كان يجري آنذاك وكان السكر والتماجن والتجانن الآلات الثلاث للإظهار والعرض وإفشاء الأسرار ودعوة الناس إلى التنمية والرقي في ظلّ حكومة تسمّى إسلامية وفي ظلّ خليفة يسمّى خليفة الله على الأرض وأمير المؤمنين. وهل يمكن أن يكون في تلك الحكومة دوراً للناس والشعراء والأدباء والعلماء؟ وهل يمكن القيام بنقد سياسات خليفة يسمّى بأمر المؤمنين؟ وهل يمكن التكلّم عن حقوق الناس والظلم عليهم؟ وهل يمكن القول إنّه أحقق في سياساته؟ وألف سؤال آخر من هذا النوع. وكان أبونواس عالماً بعواقب المخالفة وإظهارها، إذ إنّ كان عالماً بما فعل السفّاح بعبد الحميد الكاتب وبما فعل المنصور بأبي مسلم الخراساني وابنه وبمحمد النفس الزكية وبأخيه إبراهيم وبابن المقفع وبآلاف من المناضلين والمعارضين الذين كان عندهم رأى أو خطر لا بالفعل بل بالقوة. إنه كان عالماً بما فعل المهدي بصالح بن عبدالقدوس وبشار بن برد وبالكتيرين من الشيعة. وكان أبونواس شاهداً حياً على خلافة هارون الرشيد الذي كان ذا شخصية معقّدة وخطيرة جداً. فكان أبونواس عالماً بكلّ هذه القضايا وما فيها من التقلّبات ولا أكاد أشكّ أنّه كان ذكياً إلى حدّ ما أن يتّخذ أسلوباً يختصّ به لبيان آرائه وأفكاره في

زمن أولئك الخفاء الذين كتموا أفواه الناس وأنزلوا العقاب والعذاب على الشعراء والأدباء بتهمة الزندقة والخروج من الدين والشريعة. والحكومات الدينية التي تتمسك بظاهر الدين وتبنى هتافاتنا عليه هي من أشدّ الحكومات ظلماً وجوراً. وفي الحقيقة إنّها تجعل الدين وسيلةً لسلب أموال الناس ونهبها والقضاء على نفوسهم وأرواحهم. عندئذ لا تعدّ المخالفة للحكومة أمراً عادياً فحسب، بل تعدّ محاربة لله ورسوله وجريمتها السجن والموت. فكان أبو نواس ذكياً إلى حدّ ما أن يتخذ من الخمرة رمزا لبيان ما يتمناه في قوالبه الشعرية. وهذا الأمر متوقّع من الذي يشعر بالمسؤولية أمام الله والناس ويتمنى إيصالهم إلى مستوى نفوسهم كما يرى على شلق حيث يقول: «فهو يثور لا يمكن لحزب، أو يدعو لقومية، أو يستهدف غرضاً من أغراض المنفعة المباشرة، بل كان يثور بدافع إنساني شامل، ليرفع الناس إلى مستوى نفوسهم، كما يجب أن تكون لتتناغم مع العصر الذي يعيش فيه أولئك الناس.» (شلق، ١٩٩٥م: ١٥)

وأما إيليا الحاوي، وهو من شارحي ديوان أبي نواس ومؤلف كتاب "فن الشعر الخمرى وتطوره عند العرب" فيبني كلامه على غير الواقع ويقول: «يمثل واقع أبي نواس نموذجاً لواقع العصر العباسي جميعاً في الإباحية واضطراب القيم الأخلاقية. فالشبهة تقع على أصله من جهة والده.» (حاوي، ١٩٩٧م: ٢١١) في حالة كان أبوه عربياً خالصاً يعود أصله إلى اليمينيين القحطانيين. (ابن منظور، ١٩٨٦م، ج ٣: ٨) إنه يواصل قوله ويعتمد على بعض الأخبار السوء حول أمه ويقول: «... ووالدته، إثر ترمّلها، طفقت تؤوى طلاب المتع والمجان، وربما قضت عيشة مستهترّة، لم تقلع عنها وتزوج ثانية، إلا بعد أن أسرف الناس بثلبها.» (المصدر نفسه: ٢١١) ومن هنا يستنتج: «ولقد نشأ أبو نواس في تلك البيئية، يبصر المجان والخلعا وسائر المرابطين، وهم في عرس دائم من الإباحية والفجور، فألف تلك الحياة، وانطبعت في نفسه المراهقة، دون أن يقوى التحرر منها... فإن الخطيئة الأولى في شخصية أبي نواس، كانت خطيئة التربية والنشأة، إذ لم يشعر بجو البيت وصرامة الوالد، كما أن والدته أهملته وجعلته يستطلع الحياة ويتدرب على العيش بأسلوبه الخاص. فانحرف في صباه وانحرفت حياته جميعاً.» (المصدر نفسه: ٢١١) والواضح أنّها تحليل نفسى لا قيمة لها بالنسبة لذلك العصر. وكأن المؤلف يحلل

حياة أرملة تعيش مع ابنه في هذا العصر في بيتها المتمكن ولها إمكانياتها للتقحم في المعاصى والآثام. ولكنه بالنسبة لخمرياته يقول: «خمرته خمرة وجودية، إذا جاز التعبير كخمرة عمر الخيام. إنها وسيلة للخدر من مواجهة المصير.» (المصدر نفسه: ٢١٣) وهذا خلاف ما يعتقد الآخرون ثم يشير إلى بعض أبياته الخمرية ويستنتج أنه لم يكن عريداً بلغ به الإسراف والمجون كما يعتقد أكثر نقاده، ويقول: «الشاعر يشرب الخمر شرباً موصولاً لكي يقصر عمره. وهنا تظهر لنا المشكلة الوجودية بأجلى مظاهرها. فهو لا يشرب للمتعة بقدر ما يشرب للخدر... فإن طلبه لتقصير العمر يدل على أن الشاعر لا يتنعم بحياته كما يدعى البعض. وإنما يشقى بها ويرذلها.» (المصدر نفسه: ٢١٣) ولإثبات تعبيره يشير إلى هذا البيت الشعري لأبي نواس:

«أعطني كأس سلوة عن أذان المؤذن»

(الحاوي، ١٩٨٧م، ج ٢: ٤٠٢)

ويقول: «إن الكأس التي يطلبها ليست كأس خمرة وإنما هي كأس سلوة... فالسلوة تعني أن الشاعر لا يشرب الخمرة للعريدة، وإنما لكي يغرق أحزانه ويسلو الشقاء الذي يعانيه.» (المصدر نفسه: ٢١٤) ثم يشير إلى أبياته الخمرية الأخرى من هذا النوع لا نذكرها مراعاة للاختصار. وهذا تحليل جديد بالنسبة للنقاد الآخرين الذين يعتبرونه عريداً.

وأما الدكتور شوقي ضيف فإنه يواكب الآخرين ويكرر كلامهم في أبي نواس مشيراً إلى تأثيره بالحضارة الفارسية المادية التي تسبب الفساد الخلقى على زعمه ويقول: «وأبونواس الحسن بن هانئ هو أهم شاعر يصور هذا الفساد الخلقى من جميع نواحيه، وهو فارسي الأب والأم أيضاً.» (ضيف، ١٩٧٥م، ج ٣: ٢٢٠) إنه يؤكد على كون أبيه فارسي الأصل ويقوم بوصف الحضارة الفارسية بالمادية المفسدة ليتمكن له أن يسرف في رأيه على أبي نواس وينسب إليه كل ما يختلج في فكرته وقلبه في حالة كان أبوه من اليمانيين وكان أبونواس يتعصب للقحطان كما أثبتناها من قبل. مع الأسف إنه لا يكتفى بهذا المقدار ويكرر الأخبار التي تمسّ بسمعة أمّه والتي لا أساس لها، ثم يفسر الخبر ويقول: «وربما كان من دوافع رحلته مع والبة بن الحباب وإغراقه - فيما بعد -

في المجون أنه كانت تؤذيه سيرة أمه في البصرة، فارتحل معه، وأخذ يعبّ من الخمر كي ينسى أمه فهو كان كالمستجير من الرمضاء إلى النار، فقد وقع في حبال شيطان كبير، غمسه في كل ما يقع فيه من خطايا وآثام.» (المصدر نفسه: ٢٢٢) وفي الحقيقة إنه يلوک ما قاله الآخرون دون أن يكون في كلامه شيء جديد. ولكنه يعترف بفضل أبي نواس وعلمه وذكائه وعبقريته ظاناً أن خمرياته هي مرآة لحياته الشخصية دون أن تكون مرآة لحياة المجتمع.

وأما هذا هو حنّ الفاخوري الذي يتابع قول العقاد والغزالي والنويهى وشوقى ضيف، فيفرط القول في أبي نواس ويقول: «ولم يحبّ أبو نواس الخمر كما أحبها الأعشى والأخطل، أي لم يعتبرها وسيلة إلى الفرح والنشوة فحسب، بل زاد على ذلك أنه أحيها ورأى فيها شخصاً حياً، لا على سبيل المجاز، بل على سبيل الحقيقة، فإنه رأى فيها حياةً عندما رآها تُغلى وتفور وتضطرم، وتتألق ائتلاقاً وتسرى في الجسم سريانا وتبعث فيه الحرارة والنشاط، كما تصبغ العينين والحديد بحمرة الدم، فهي ذات روح يحاول أبو نواس أن يستلها من الدن ليجعل في جسمه روحين، وهي كائن أشبه بكائنات عالم الأفلاك، إذ هي مادة روحانية.» (الفاخوري، لاتا: ٦٩٩) ولا يقف عند هذا الحد ويعتقد أن أبانواس كان يرى في الخمرة حياً خاصاً كحب العاشق للمعشوق ويقول: «كانت الخمرة لأبي نواس شقيقة روح، فأحبها حبّ العاشق للمعشوق، حبّ الزوج للزوجة ووجه إليها جامحه الجنسي، ووصفها بجميع صفات الأنوثة، وراح إلى بائعها يخطبها، ويدفع المهر، ويخاطبها فتخاطبه، ويقوم لها حفلات الزفاف بكل ما أوتي من اندفاع وفنّ وراح يسكب ليجد راحة نفسه، فأصبحت روحه وأصبح الخمرة شخصاً واحداً، لا يستطيع الانفصال عنها وصبّ فيها كل فكره وكل قلبه وأراد الحياة كأسا وسكرة.» (المصدر نفسه: ٧٠٠-٦٩٩) والواضح أن الفاخوري اعتمد على ظاهر خمرياته ولا يرى فيها شيئاً غير الخمرة الحسية، فلا يستطيع تحليله وتحليل خمرياته. فإذا نأتى بآراء عجيبة وشاذة. إنه يتكلم عن أبي نواس كأنه لا يتكلم عن إنسان، بل كأنه يتكلم عن موجود خيالي ما عرفناه حتى الآن. يقوم الفاخوري بطرح هذه الآراء السخيفة دون أن يتساءل نفسه ما هو معنى إقامة حفلات الزفاف بالخمر وما هو معنى

حبّ الخمرة كالزوجة؟ إنّه لا يكتفى، مع الأسف، بهذا الحدّ من الكلام فيأتى بآراء أسخف ويقول: «إنّه رأى في الخمرة شيئاً من الألوهة ورآها فوق النار التي كان الفرس يعبدونها، ورآها فوق معبودات الناس أجمعين، حتّى كادت تنسيه الله تعالى، ووصفها بصفات الذات الإلهية، وجعل لها آلاء وأسماء حسنى.» (المصدر نفسه: ٧٠٠) والواضح أنّ المحقّد الدفين بارز في كلام حنا الفاخورى عندما يتكلّم عن الإيرانيين. فلهذا في أوّل كلامه عندما يتحدث عن نشأة أبى نواس يقول: «ولد من أبوين فارسيين» (المصدر نفسه: ٦٩٢) وهذا خلاف لما هو المشهور والذي أثبتناه من قبل. يقوله الفاخورى ليبنى عليه ما يتمناه عن طريق ازدراء الإيرانيين وثقافتهم القديمة.

هذا هو أبونواس، كما يراه بعض نقادّه المعاصرين، معانيا من عقده النفسية، معوضاً عن اشتهاؤه الجنسي نحو الخمرة، متخذاً من واقعة الخمرة بديلاً عن أمّه وبديلاً عن إله ذات قدر، مسلياً أحزانه وما إلى ذلك. ونحن لا ندرى على أى أساس اعتمد النقاد على هذه العقده، حين أنّ جميع المصادر والمراجع تؤكّد صحّته النفسية والعقلية. وتلك الأوصاف والعقد المنسوبة إليه بصورة ساخرة لا تنطبق على أىّ إنسان فضلاً عن تنطبق على شاعر كبير كأبى نواس الذى يعترف جميع النقاد القدامى بعلمه وأدبه وذكائه وبراعته في الشعر واللغة، كما يعترف به بعض النقاد الجدد أنفسهم الذين أفرطوا فيه: «وأبونواس -على الرغم من مجونياته- يعدّ من أعاجيب عصره في الشعر، إذ كان يحظى بملكات شعرية بديعة، وهى ملكات صقلها بالدرس الطويل للشعر القديم واللغة العربية الأصيلة، حتى قال الجاحظ: ما رأيت أحداً أعلم باللغة من أبى نواس.» (ضيف، ١٩٧٥م، ج ٣: ٢٢٧)

وفي الحال نرى أنّ الدكتور طه حسين يرى شيئاً آخر في خمریات أبى نواس حيث يقول: «على أنّ من الحق أن نعرف لأبى نواس شيئاً غير هذا الفسق والإغراق في المجون وهو التوفيق بين الشعر وبين الحياة الحاضرة، بحيث يكون الشعر مرآة صافية تتمثّل فيها الحياة، ومعنى ذلك العدول عن طريقة القدماء لأن هذه الطريقة كانت تلائم القدماء وما ألفوا من ضروب العيش، فإذا تغيّرت ضروب العيش هذه، وجب أن يتغيّر الشعر الذى يتغنى بها، فليس يليق بساكن بغداد المستمتع بالحضارة ولذاتها أن يصف

الخيام والأطلال أو يتغنّى الإبل والشاء، وإِنَّمَا يجب عليه أن يصف القصور والرياضَ ويتغنّى الخمرَ والقيان. فإن فعل غير ذلك فهو كاذب متكلف. أراد أبو نواس أن يشرع للناس هذا المذهب فجَدَّ فيه ووفقَ التوفيقَ كُلَّهُ، واتَّخَذَ وصف الخمر وما إليها من اللذات وسيلةً إلى مدح طريقته الحديثة وذمَّ طريقة القدماء. «(حسين، ١٩٧٦م، ج ٢: ٩٠) إِنَّهُ يواصل كلامه ويضيف: «فهو ليسَ مذهباً شعرياً فحسب وإِنَّمَا هو مذهب سياسي أيضاً.» (المصدر نفسه: ٩٠) ويؤكد طه حسين: «أَنَّ شعرَ أبي نواس في الخمر لم يكن هزلًا كُلَّهُ، ولم يكن الغرض منه المجون وحده، أو الإسراف في وصف اللذات وإِنَّمَا كان أبو نواس يتخذ الخمرَ وسيلةً إلى شيء من الجدِّ، له خطره في الأدب، ووسيلةً إلى شيء آخر من الجدِّ، له خطره في غير الأدب.» (المصدر نفسه: ٩٤) وفي تأييد هذا الرأي، وأكثر من ذلك نقول: إن الشعر الخمري كُلُّها جدُّ؛ ونذكر ما صرَّح به أبو نواس نفسه حيث يقول: «إذا أردتُ أن أجدَّ قلتُ مثل قصيدي «أيها المنتاب عن عفره» (الحاوي، ١٩٨٧م، ج ١: ٤٩٥) وإذا أردتُ العبتَ قلتُ مثل قصيدي «طابَ الهوى لعميده» (المصدر نفسه: ٣٥٦) «فأمَّا الذي أفنى فيه وجدى وكلُّه جدُّ فإذا وصفُ الخمر.» (ابن منظور، ١٩٩٥م: ٥٩) وهناك قرائن أخرى تؤكد أن خمرياتة حافلة بالرموز والأسرار السياسية والإنسانية، ومن هذه الشواهد أنه: حُبِسَ عدة مرَّات بتهمة الزندقة في عهد الرشيد ولم يزل إلى أن مات الرشيد وقام الأمين مكانه، فتوسط له الفضل بن الربيع وأطلقه من السجن. فلَمَّا سئل عن سبب حبسه قال: «اتهموني أني أشرب شراب أهل الجنة. قال: وما لك ذنبٌ غير هذا؟ قال: لا والله.» (المصدر نفسه: ٢٩٩) ومن جانب آخر نرى تأثره بالقرآن الكريم من ناحية اللفظ والمعنى في الكثير من أبياته الخمرية التي وردت فيها ألفاظ أو معان تبادر إلى ذهن القارئ الآيات التي وردت في القرآن الكريم وتتحدث عن شراب أهل الجنة من مثل: ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتومٍ * ختامه مسكٌ فليتنافس المتنافسون * ومزاجه من تسنيم * عينا يشربُ بها المقربون﴾ (المطففين: ٢٨ - ٢٨ - ٢٥) وآيات كثيرة أخرى. ولا يمكن لسنا معنيين بالموضوع المشار إليه وهو بحاجة إلى دراسة على حدة. وهناك رواية أخرى نشغف بها كُلِّما نعود إليها، على أنها أبين القول في هذا الموضوع وهي: «قال حسين بن ضحَّاك: كنتُ أساير أبانواس يوماً بالكوفة، فمررنا

بكتاب وإذا صبيُّ يقرأ من سورة البقرة: ﴿كَلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ (البقرة: ٢٠) فقال: أى معنى يستخرج من هذا فى الحمر؟ فقلت ويحك ألا تتقى الله بكتاب الله فلما كان من الغد أنشدنى:

وسياره ضلّت عن القصد بعد ما
ترادفهم أفق من الليل مظلم

فأصغوا إلى صوتٍ ونحن عصابة
وفينا فتى من سكره يترنم

فلاحت لهم منّا على النّاي قهوة
كأنّ سناها ضوء نارٍ تضرّم

إذا ما حسّوناها أقاموا مكانهم
وإن مزجت حثوا الركاب ويمّوا»

(ابن عساكر، ١٣٣٢ق، ج ٤: ٢٧٢؛ ابن منظور، ١٩٩٥م: ٣٠٢؛ الحاوى، ١٩٨٧م،

ج ٢: ٣٠٨ - ٣٠٧؛ والديوان: ٤٥)

والآية المذكورة تمثّل الذين اشتروا الضلالة بالهدى وليس لهم علم، ولا هداية. ويؤكد أبو نواس، بهذه الأبيات، أن قصده من الحمره هو النور والهداية. والعجيب أنّ الحادثة المذكورة حدثت فى الكوفة قبل أن يهاجر أبو نواس إلى بغداد، أى قبل أن يصل إلى الثلاثين من عمره، تلك الفترة التى يُتّهم فيها بالمجون. فهذه الرواية تدلّ على أنه استعمل الحمره حتّى من أوان شاعريته بمعنى غير حسسى وهى مذهبه السياسى والاجتماعى والثقافى. ولإماطة اللثام عن الزوايا الخفية فى شعره الخمرى وأبعاده السياسية والروحية لا بد من الإشارة إلى نزعة أبى نواس الشعوبية فى حياته الاجتماعيه والأدبية وإلى انتمائه إلى الشيعة فى حياته السياسية والدينية. وفيما يتعلق بشعوبية أبى نواس وردت أخبار كثيرة منها قول ابن رشيق القيروانى حيث يقول: «وكان أبو نواس شعوبى اللسان ولا أدرى ما وراء ذلك.» (القيروانى، ١٩٢٥م، ج ١: ١٥٥) وقد كان للشعوبية هذه دور كبير فى تاريخ الأدب، كما كان لها دور مهم فى السياسة العربية فى العصر العباسى. وأما من الدلائل الهامة التى تشير إلى تشيع أبى نواس فهو ما قاله أبو العلاء المعرى عنه حيث

يقول: «ولا أرتاب أن دعبلاً كان على رأى الحَكَمَى {أى: أبى نواس} وطبقته، والزندقة فيهم فاشية ومن ديارهم ناشئة.» (المعرى، ١٩٨٣م: ١١٥) ولا يخفى علينا تشيع دعبل وإخلاصه لآل البيت وشعره الصادق فيهم. وأبعد من ذلك، الدراسات القيمة والمفصلة التي أجراها محسن الأمين في كتابه المتين المسّمى بـ "أعيان الشيعة" جعله من أعيان الشيعة وكبارهم فض لا أن يكون واحداً منهم. ومما يشير إلى تشيع أبى نواس ما جاء في مختار الأغاني: «قال أبو سهل إسماعيل بن على النوبختي:

قال لى عمى: قلت لأبى نواس: ما رأيتُ أوقح منك. ما تركتَ خمرا ولا طردا ولا غزلاً ولا مديحا ولا معنىً إلاّ قلتَ فيه شيئاً، وهذا على بن موسى فى عصرك، لم تقل فيه شيئاً. فقال: والله ما تركتُ ذاك إلاّ إعظاما له وليس قدر مثلى أن يقول فى مثله. ثم أنشدنا بعد ساعة:

قيل لى أنتَ أوحُدُ الناسُ طُراً

فى فنون من المقال النبیه

لك من جيّد القريض مديحٌ

يُثمِرُ الدرّ فى يَدَى مُجتنيه

فعلامَ توكلتَ مدح ابن موسى

والخصال التى تجمَعَنَّ فيه

فقلتُ لا أستطيع مدح إمام

كان جبريلُ خادماً لأبيه

(ابن منظور، ١٩٦٦م، ج ٣: ٢٧٧)

وقد ذكر ابن خلّكان عند ذكر أحوال الإمام الرضا (ع) ممّا يدل على تشيعه أيضاً ما جاء فى أعيان الشيعة: «نظر أبونواس إلى أبى الحسن على بن موسى الرضا عليه السلام ذات يوم وقد خرج من عند المأمون على بغلة لهم. فدنا منه أبونواس. فسلمّ عليه وقال: يا ابن رسول الله قد قلتُ فىك أبياتا فأحِبُّ أن تسمعها منى. فقال: هات. فأنشأ يقول:

مطهّرون نقيّات ثيابهم

تجرى الصلاة عليهم أينما ذكروا

من لم يكن علويا حينَ تنسبه
فماله في قديم الدهر مفتخر
فألله لما بدا خلقا وأتقنه
صفاكم واصطفاكم أيها البشر
فأنتم المملأ الأعلى وعندكم
علم الكتاب وما
جاءت به السورُ

(ابن خلكان، ١٩٤٨م، ج ٣: ٤٣٣)

فقال له الرضا(ع): قد جئنا بأبيات ما سبقك إليها أحدٌ. ثم قال يا غلام هل معك من نفقتنا شيء؟ فقال: ثلثمائة دينار. فقال: أعطها إياه. ثم قال: لعله استقلها يا غلام، سبق إليه البغلة.» (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٢: ٤٣٣)

وقد ذكر ابن خلكان هذه الأبيات في كتابه دون ذكر التفاصيل.

وأيضا له شعر في الإمام علي (ع) «أورد له ابن شهر شوب في المناقب أولها: قيلَ
لى قل فى على مدحا. وأورد له بعد الأبيات الأربعة التى أولها: يا رب إن عظمت ذنوبى
كثرة... (الديوان: ٦١٨) قوله:

تمسكاً بمحمدٍ وبآله
إن الموفق من بهم يستعصم

ثم الشفاعة من نبيك أحمد

ثم الحماية من على أعلم

ثم الحسين وبعده أولاده

ساداتنا حتى الإمام المكتّم

سادات حرّ ملجا مستعصم

بهم ألودُ فذاك حصينٌ محكمُ»

(الأمين، ١٩٨٣م، ج ٥: ٣٤٩)

وأيضا مما يدل على تشيع أبي نواس «ما رواه الحموى في كتاب فرائد السمطين عن

قول المبرّد حيث يقول: «خرج أبو نواس ذات يوم من دارٍ فبصرَ براكبٍ قد حاذاه فسأل عنه ولم يرَ وجهه فقيل: إنّه على بن موسى الرضا فأنشأ يقول:

إذ أبصرتك العين من بعد غاية
وعارض فيك الشك أثبتك القلبُ

ولو أنّ ركبا يَمُوكَ لقادهم
نسيمك حتّى يستدلّ بك الركبُ»

(المصدر نفسه: ٣٤٨)

وأيضاً ممّا يدل عليه ما قاله أبو نواس في الإمام الباقر عليه السلام «وأورد له ابن شهر شوب هذه الأبيات ويظهر أنها في الإمام الباقر عليه السلام:

فهو الذي قدر الله العلي له
أن لا يكون له في فضله ثاني

وهو الذي امتحن الله القلوب به

عَمّا يُجمِمنَ من كفرٍ وإيمانٍ

وإنّ قوما رجوا إبطال حقكم

أمسوا من الله في سخط وعصيان

لم يدفعوا حقكم إلّا بدفعهمُ

ما أنزل الله من آيٍ وقرآنٍ

فقدروها لأهل بيتٍ إنهمُ

صنو النبي وأنتم غيرُ صنوانٍ»

(المصدر نفسه: ٣٤٨ و٣٤٩؛ والديوان: ٤٢٠ و٤٢١ مع شيء من الاختلاف)

ودليل آخر قوله في هجاء إسماعيل بن صبيح، كاتب سر الأمين حيث يقول:

ألا قل لإسماعيل إنك شاربٌ

بكاسِ بني ماهانَ ضربة لازم

أتسمنُ أولاد الطريد ورهطه

بإهزال آل الله من نسل هاشمٍ

(الديوان: ٥١٤)

وهجاء أبى نواس لهاشم بن حُديج والإشارة إلى قاتلى على بن أبى طالب (ع)
ومحمد بن أبى بكر هو خير دليل على تشييعه لآل البيت إذ يقول:
ياهاشم بن حُديج ليسَ فخرُكمُ
بقتل صهر رسول الله بالسَّدَدِ
أدرجتم في إهاب العير جثته
فبئس ما قدّمت أيديكم لعدِ
إن تقتلوا ابن أبى بكر فقد قتلتُ
حُجرا بدارة ملحوب بنو أسدِ

(الديوان: ٥٥١)

وأيضاً فى قصيدة أخرى يشير إلى قتل على بن أبى طالب (ع) قائلاً:
فإنَّ حُديجا له هجرةٌ
ولكنّها زمنَ الردّه
وما كان إيمانكم بالرسول
سوى قتلكم صهره بعده
تعدّونها فى مساعيتكم
كعدّ الأهلّة معتدّه
وما كان قاتله فى الرجال
بجملٍ لظهرٍ ولا رُشده
فلو شهدته قريش البطاح
لما محّشت ناركم جلده

(الديوان: ٥٥١)

فكيف يتّهم برأى الخوارج وهو يؤكّد بأن قاتل على (ع) ليس طاهراً ولا راشداً. ألا
تؤكد هذه الأبيات الواضحة المعنى على تشييعه؟
ومن شعره الذى مزج فيه الجدد بالهزل والتشييع فيه بين ظاهر، ما أورده له محسن

الأمين عن ابن شهر شوب في المناقب في سيرة أمير المؤمنين عليه السلام. قال:
و مدامةٍ من خمر عانةٍ قرقفٍ
صفراءُ ذات تلَّهبٍ وتشعشع
رقت كدين الناصبي وقد صفتُ
كصفا الوالي الخاشع المتشيع
باكرتها وجعلتُ أنشقُ ريجها
وأمصُّ دُرَّتْها كدُرَّةٍ مُرضع
في فتيةٍ رفضوا سوى آلِ الهدى
وعنوا بأروعَ في العلوم مشعَّع
وتيقنوا أن ليسَ ينفع في غدٍ
غيرُ البطين الهاشمي الأنزِع

(الأمين، ١٩٨٣م، ج ٥: ٣٤٩)

ودليل آخر هو أنه قد شاعت في تلك الفترة بدعة شتم آل أبي طالب (ع). (جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، ج ٢: ٣٨٧) وما سمعنا شيئاً من أبي نواس، بل إنه كان يُعرض إعراضاً تاماً عن الدخول في زمرة الشعراء الذين شتموا أهل البيت وكان على رأس هؤلاء، مروان بن أبي حفصة، (زيدان، ١٩٩٢م، ج ٢: ٣٨٧) والذي نال الجوائز العديدة في بلاط المهدي وكان مقرباً منه ومن الرشيد من بعده. ومن هؤلاء أيضاً إبّان عبد الحميد اللاحق وسلم الخاسر. وأيضاً دليل آخر على تشييعه هو ذهابه إلى قوم بني أسد لفصح اللسان كما ذكرناه عند ذكر حياته وهم معروفون بالتشييع حتى الآن. وقد أكد ابن منظور على تشيع أبي نواس إذ يقول: «ومن خلال أبي نواس الماثورة أنه كان يميل مع أهل البيت سرا، لا يجسرُ على المجاهرة به.» (ابن منظور، أخبار أبي نواس: ٢١٩) وما كان لرجل شيعي أن يجاهر بمذهبه فضلاً عن شاعر قد ذاع صيته في آفاق وهو يخالف الحكم العباسي. على أنه قد شاعت تلك الفترة شتم أبي طالب وآله: أنظر إلى نصح أبي نواس:

خَلَّ جَنِيكَ لِرَامٍ
وَامِضْ عَنْهُ بِسَلَامٍ
مُتَّ بَدَاءَ الصَّمْتِ خَيْرٌ
لَكَ مِنْ دَاءِ الْكَلَامِ
رَبِّمَا اسْتَفْتَحْتَ بِالْمَزْحِ
حَ مَغَالِيقِ الْحِمَامِ
رُبَّ لَفْظٍ سَاقَ آجَا
لَ نِيَامٍ وَقِيَامِ
إِنَّمَا السَّالِمُ مِنَ أَلِ
جَمِّ فَاهِ بِلِجَامِ
فَأَلْبَسِ النَّاسَ عَلَى الصِّ
حَّةِ مِنْهُمْ وَالسَّقَامِ
وَعَلَيْكَ الْقَصْدُ إِنَّا أَلِ
قَصْدُ أَبْقَى لِلْحِمَامِ
شَبَّتْ يَا هَذَا وَمَا تَتَّ
رَكُّ أَخْلَاقِ الْغُلَامِ
وَالْمَنَايَا آكِلَاتُ
شَارِبَاتُ لِلْأَنَامِ!

(الديوان: ٦٢٠)

هل رأيت كلاماً أفصح من الأبيات المذكورة في بيان الخوف السائد على تلك الفترة؟ ينصح الناس ألا تتكلموا بالجد، بل بالمزح كي تستفتح مغاليق الموت بالمزح، وينصح بالصراحة مؤكداً:

إِنَّمَا السَّالِمُ مِنَ أَلِ
جَمِّ فَاهِ بِلِجَامِ

مشيراً إلى أن العاقل هو الذي يقتصد في الكلام، وبالطبع هو الكلام المخالف للحكم

ويشير إلى المنايا التي تنتظر أكل الناس.

وفي مكان آخر يقول:

هذا زمان القروود فاخضع
وكن لهم سامعا مطيعا

(الديوان: ٥١٩)

فلا عجب أن يختار "التقية" وقاية له في مواجهاته بالحكومة العباسية كما هو نفسه

يشير صراحة إليها حيث يقول:

يا رَبِّ إِنَّ الْقَوْمَ قَدْ ظَلَمُونِي
وبلا اغتراف خطيئة حَبْسُونِي

وإلى الجحود بما عليه طويقي

رَبِّي إِلَيْكَ بِكَذِبِهِمْ نَسْبُونِي

ما كان إلا الجرئى في ميدانهم

في جُلِّ حالى والتقية دینی

(EWALD, WAGNER, لاتا، ج ١: ٣٤٠؛ والديوان: ٥٩٦ مع شىء من الخلاف)

هذه هى الأخبار والأشعار التي تؤكد على تشيع أبي نواس بشكل واضح، ولا نطيل الكلام في هذا الحقل أكثر من هذا. وهناك أبيات وقصائد كثيرة أخرى تدل على إسلامه وتشيعه وبإمكان القارئ أن يراجع قسم الزهديات من ديوانه. ولا دليل هناك أن نعتبرها مما قالها في أواخر عمره توبة إلى الله تعالى.

النتيجة

مهما تباينت الآراء حول حياة أبي نواس وشخصيته وشأن خمرياتة وموقفه السياسي وتوجهاته الفكرية وموقفه من الحياة من خلال شعره الخمرى، فإن جميع الباحثين يتفقون على أنه كان علما بارزا من أعلام الإبداع الفنى في تاريخ الشعر العربى ولا سيما فى الخمريات وكان روحا متفتحا لكل ما هو عذب وجميل. وفيما يتعلق بحياته الشخصية الشىء المهم هو أن أخباره السيئة فى الكتب القديمة أقل من الأخبار السيئة

فى كتب المعاصرين، والأخبار الدالة على كثرة علمه وأدبه وثقته وإيمانه أكثر وأكثر من أخبار السوء. ومهما تنتقل إلى الكتب الحديثة نواجه أخبارا غير كريمة تتزايد حوله. فللباحث أن يراجع الكتب القديمة القريبة من حياته ليُصان عن الخطأ. لم يكن أبونواس ذلك الشاعر المتكسب الذى سخرَ شعره تماما لمدح الخليفة والتقرّب منه للحصول على مغامم المديح فحسب، ولو أنه رافق الأمين مدة قصيرة ومدح بعض الأمراء والوزراء، وذلك عندما ضاقت عليه سبل العيش. والدليل على ذلك أنه سجن عدة مرات فى خلافة هارون الرشيد والأمين بتهمة الزندقة، لأنّه لم يكن تلك الموهبة الشعرية التى ترتدى أثواب الرياء وتختفى وراء أقنعة النفاق الاجتماعى. فإذا كان أصحاب المواهب الصغيرة، أو الذين افتقروا بكلّ موهبة، قد اختاروا طريق الرّياء والنفاق واختاروا طريق التملق لأرباب الجاه والثراء لتحقيق الشهرة والمكاسب الشخصية، فإنّ أبانواس قد اختار فى كثير من الأحيان الاتجاه المعاكس. إنه شقّ بموهبته الفذة عصا الطاعة على المجتمع، واستخدم موهبته أداة لهدم كلّ بناء فنى أو روحى يتعارض مع حرّيته وانطلاقته الروحية وتوقه المتصل إلى الكشف والتعمق فى أسرار الحياة والكون والنفس الإنسانية. إنه استخدم جرأته النفسية ليعرّى نفاق المتسلّطين فى المجتمع وضالة النفس أمام الإطماع، وأمام قيود الأعراف والتقاليد والموروثات. ولكن بقدر ما ارتقت بأبى نواس موهبته باتجاه قمم الإبداع، عرّضته للكيد والوقيعه والتشهير والاتّهامات الكثيرة. وعرّضته كذلك فى الكثير من الأحيان إلى بطش الخليفة، تارة بتهمة الزندقة وتارة أخرى بتهمة الخروج على تعاليم الدين وأعراف المجتمع، وإن كان السبب الحقيقى ليس شربه للخمر مادام الخليفة نفسه لم يكن يمتنع عن شربها، بل لأنّه اختار من شعره الخمرى وسيلة للتعبير عن موقفه الفكرى والسياسى والإبداعى مستهينا بكل الأعراف البالية، وعبرّ من خلال شعره الخمرى عن انفصاله وغربته.

وإذا كانت مشكلته أن عاشَ غريبا، فإنّ لأبى نواس مع زمنه وعصره، مشكلة أخرى وهى أنّه لا يقدر إلا أن يتمردّ على الظلم والعنف، ويرفع راية الحرّية الاجتماعىة والسياسية فى وجه القمع الاجتماعى والسياسى، وراية الحرّية الفنيّة فى وجه القوالب

الشعرية التقليدية المقدسة، وراية العصيان على الأعراف، وعلى مظاهر التخفى والتستر في طلب طبيبات الحياة. ولم يكن كل ذلك من المستطاع إلا في قالب شعري جديد والمسمّى اليوم بالخمريات. الأبيات الخالدة التي كلما تقرأها تجد فيها شيئاً جديداً لم تكن تجده من قبل.

ولسنا بقائلين إنه كان مؤمناً قديساً لم يكن يشرب الخمر قط. ولا يهمننا أبداً كان يشربها أم لم يكن من الشاربين، بل كلما ذهبنا إليه: أنه كان مسلماً شيعياً قام في وجه الأعراف البالية التي كانت مدعومة من جانب الحكم العباسي، بطريقته التي لم يكن لها مثيل في تاريخ الأدب وهي اختيار التماجن وليس مجونه الشخصي. والذين يعتبرون خمرياته مرآة لحياته الشخصية، ولا مرآة لحياة مجتمعه وعصره، ولا تعبيراً عن طاقاته الفنية، فلا يجدون طريقاً لفهم الخمريات ولا يمكن لهم أن يمسوا جانباً من جوانبها. ولا بد لهم أن ينتبهوا إلى دور التماجن والتجانن والتظرف في تلك الفترة الصعبة في حياة الناس.

وأخيراً قد استطاع أبو نواس من خلال طاقاته الفنية والإبداعية والروحية أن يجعل لخمريته أبعاداً وأن يرسم لها آفاقاً تفرق من الخمرة التي تغنى بها الذين كانوا من قبله ومعاصروه. وإذا كانت الخمرة في شعر سابقه تُعبّر عن ترف أو تجسّد جزءاً من التراث العربي، فقد كان عند أبي نواس تعبّر عن حاجة روحية ونفسية وفكرية وتجسّد ما في نفسه من غنى فكري وسياسي وفلسفي وروحي. والمتتبع في خمريات أبي نواس يرى أنّها كانت وسيلة إلى إبداع عوالم شعرية، وأداة لتفجير طاقته الإبداعية وخلق اتجاهه المتميّز والجديد ووسيلة لتنبه الناس وسوقهم إلى العوالم الإنسانية.

إنّ الوقوف على آفاق خمرة النواصي يقتضى تتبّع أبعاد هذه الخمرة ومعانيها، على حسب المواقف التي استعملها الشاعر. وربما نتعرف على سير حياته في هذا النوع من الوقوف، على أنّه استعملها في معانٍ مختلفة على حسب الظروف وعلى حسب ما وصل إليها من الناحية الفكرية. وفيصل القول إنّه لخمرياته، على الأقل، خمسة مراتب ودرجات، منها: الخمرة التقليدية، والخمرة التجديدية، والخمرة الاجتماعية والسياسية، والخمرة النفسية، والخمرة الأخلاقية، والروحية. وفي هذا النوع الأخير نواة قصائد المتصوفة الخمرية من ناحية اللفظ والمعنى. والمجدير بالإشارة إلى أنّ معالجة مضامين

خمریات أبی نواس تتطلّب دراسة أخرى.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- ابن خلكان، ١٩٤٨م. وفيات الأعيان. الطبعة الأولى. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.
- ابن عساکر، ١٣٣٢ق. التاريخ الكبير. لاط. الشام: مطبعة الروضة.
- ابن المعتز، عبدالله. ١٩٩٨م. طبقات الشعراء المحدثين. الطبعة الأولى. بيروت: شركة دار الأرقم بن أبی الأرقم.
- ابن منظور، محمد بن مكرم. ١٩٩٥م. أخبار أبی نواس. الطبعة الثانية. بيروت: دار الفكر والطباعة والنشر والتوزيع.
- ابن منظور، محمد بن مكرم. ١٩٦٦م. مختار الأغاني في الأخبار والتهاني. لاط. القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة.
- الأثرى، محمد بهجة. ١٩٩٦م. مقدمة تفسير أرجوزة أبی نواس. لاط. دمشق: المطبعة الهاشمية.
- الأمين، محسن. ١٩٨٣م. أعيان الشيعة. لاط. بيروت: دار التعارف للمطبوعات.
- الحاوي، إيليا. ١٩٨٧م. شرح ديوان أبی نواس. لاط. بيروت: الشركة العالمية للكتاب.
- الحاوي، إيليا. ١٩٩٧م. فن الشعر الخمرى وتطوره عند العرب. لاط. بيروت: دار الثقافة.
- حسين، طه. ١٩٧٦م. حديث الأربعاء. الطبعة الثانية عشرة. القاهرة: دار المعارف بمصر.
- الزعيم، أحلام. ١٩٨١م. أبونواس بين العيب والاعتراب والتمرد. الطبعة الأولى. بيروت: دار العودة.
- شلق، على. ١٩٩٥م. أبونواس، بين التخطى والالتزام. الطبعة الأولى. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر.
- صدقي، عبدالرحمن. لاتا. أبونواس، قصة حياته في جده وهزله. لاط. القاهرة: لانا.
- ضيف، شوقي. ١٩٧٥م. تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول. الطبعة الخامسة. القاهرة: دار المعارف بمصر.
- العقاد، عباس محمود. لاتا. أبو نواس، الحسن بن هانئ، دراسة في التحليل النفساني والنقد التاريخي. لاط. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.
- الغزالي، أحمد عبدالمجيد. ١٩٥٣م. ديوان أبی نواس. لاط. بيروت: دار الكتاب العربي.
- الفاخوري، حتّا. لاتا. الجامع في تاريخ الأدب العربي. لاط. بيروت: دار الجليل.
- القيرواني، ابن الرشيقي. ١٩٢٥م. العمدة. الطبعة الأولى. القاهرة: مطبعة أمين هندية.
- النويهي، محمد. ١٩٥٣م. نفسية أبی نواس. لاط. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.
- Ewald, Wagner. لاتا. ديوان أبی نواس. لاط. القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة.